

## إضاءات حول الخطاب الديني

المهندس عدنان الرفاعي

.. مُصطلحُ الخطابِ الدينيِّ ، عامٌ ، يُحمَلُ مفاهيمَ كثيرةً ، وذلك حسبَ المنظارِ الفكريِّ الذي يُنظرُ من خلاله إلى الدين .. وبصورةٍ أدق .. حسبَ مفهومنا للدين .. .. فكلُّ يعايرُ الخطابِ الدينيِّ في معيارٍ ما يعتبرُهُ حقاً ، ويُصنّفُهُ حسبَ اعتقاده لحدودِ ساحةِ المقدّسِ ، ويقيّمُهُ حسبَ إدراكه لأحكامِ المقدّسِ .. .. فالخطابُ الدينيُّ ذاته يُرى بأشكالٍ مُختلفةٍ ، ومتناقضةٍ ، وذلك حسبَ المفاهيمِ المُختلفةِ والأفكارِ المتباينة .. وهذا يدفعنا إلى التمييزِ بين خطابٍ دينيٍّ يمتدُّ فكرُهُ وثقافته من كتابِ الله تعالى ، كونَ كتابِ الله تعالى حاملاً للمنهج .. يقولُ تعالى : ( وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ) ، وبين أيِّ خطابٍ محسوبٍ على الدين ، يستمدُّ فكرُهُ وثقافته مما يُحسبُ ويُصنّفُ جهلاً داخلَ حدودِ الدين ، ويُقدّمُ على أنه خطابٌ ديني ..

( ١ ) - النقطةُ الأولى التي نقفُ عندها تكمنُ في كونِ الخطابِ الدينيِّ الحقُّ يدعو إلى ثقافةِ المحبةِ والبرِّ والإحسانِ بين جميعِ أبناءِ المُجتمعِ مع ، مهم ما اختلفت انتماءاتهم الدينية والمذهبية والطائفية .. يقولُ تعالى :

( لا ينهاكمُ اللهُ عن الذينَ لم يُقاتلوكُم في الدينِ ولم يُخرجوكُم من ديارِكُم أن تَبَرُّوهمُ وتُقسطُوا إليهمُ إنَّ اللهَ يُحبُّ المُقسطينَ ) (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُم فِي الدِّينِ

وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

( الممتحنة : ٨ - ٩ )

.. فالله تعالى يدعو إلى التعامل مع الآخر بالقسط والإحسان ، ما لم يُقاتلنا ما ويخرجنا من ديارنا ، وبالتالي فوحدة أبناء المجتمع داخل إطار التفاعل الإنساني النبيل ، مطلب قرآني ، مهما تباينت الانتماءات الدينية والمذهبية والطائفية بين أبناء هذا المجتمع ..

.. هذا هو الخطاب الديني الحق المستمد من كتاب الله تعالى ، فيما يخص هذه النقطة .. بينما نرى بعض أوجه الخطاب المحسوب على الدين ، تُقدم نصوصاً ملفقة على لسان الرسول ﷺ ، تدعو إلى ثقافة الكره والافتتال بين أبناء المجتمع الواحد .. من ذلك ، الزعم بصحة الحديث التالي وبنسبه إلى الرسول ﷺ ..  
صحيح مسلم رقم : ( ٤٠٣٠ ) ، حسب ترقيم العالمية :

[[ حَدَّثَنَا ..... عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا تَبْدُؤُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَىٰ بِالسَّلَامِ فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَىٰ أَضْيَقِهِ ..... ]]

.. كم هو الفارق بين دلالات هذه الرواية الملفقة على لسان الرسول ﷺ ، وبين دلالات الآيتين الكريميتين اللتين تدعوان إلى نشر ثقافة المحبة والبر والإحسان بين أبناء المجتمع ؟ !!! ..

.. من هنا نستطيع القول : إن تبني دلالات هاتين الآيتين في هذه النقطة التي نتحدث عنها ، ناتج عن خطاب ديني حق ، وإن تبني دلالات هذه الرواية الملفقة على لسان الرسول ﷺ ، والدفاع عنها ، وتقديمها سنة من سنن الرسول ﷺ ، ومحاولة إيهام الناس بصحتها من خلال خلق تبريرات لا يحملها نص هذه الرواية لا من قريب ولا من

بعيد .. كل ذلك ناتج عن الغرق في حيثيات خطاب يُحسبُ على الدين ، والدينُ منه براء ..

( ٢ ) - النقطة الثانية التي نقفُ عندها تكمنُ في كَوْنِ الخطابِ الدينيِّ الحقِّ ، يدعو إلى عدمِ احتكارِ الخلاص ، وإلى عدمِ تركيةِ النفسِ على حسابه الآخريين .. يقولُ تعالى :

( هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ) ( النجم : ٣٢ )  
.. ويقولُ تعالى :

( أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ) (٤٩) انظرُ كيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ) ( النساء : ٤٩ - ٥٠ )  
.. والخطابُ الدينيُّ الحقُّ يدعو إلى عدمِ احتكارِ الخلاص ، وإلى عدمِ اتِّهامِ الآخرين بأنهم ليسوا على شيء .. يقولُ تعالى :

( وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ) ( البقرة : ١١٣ )

.. فقولُهُ تعالى : ( كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ) ، يُبيِّنُ له ما أنَّ اتِّهامَ الآخرين بأنهم ليسوا على شيء ، هو جهلٌ ومخالفةٌ لأحكامِ الله تعالى ..  
.. ويبيِّنُ اللهُ تعالى في كتابه الكريم أن احتكارَ الخلاصِ الذي يذهبُ إليه المسلمون وأهلُ الكتاب ، ليس أكثرَ من أمنيات .. يقولُ تعالى :

( لَيْسَ بِأَمَانَتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِيهَا ) ( النساء : ١٢٣ - ١٢٤ )

.. وكل النصوص القرآنية التي تحمل دلالات لهذه المسألة ، لا تتعارض مع دلالات هذا النص القرآني .. فعلى سبيل المثال ، قوله تعالى : ( وَمَنْ يُتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ) ( آل عمران : ٨٥ ) ، لا يتعارض مع عدم احتكار الخلاص الذي يحمله القرآن الكريم ، فالذي لا يقبل منه دين إلا الإسلام ، هو المسلم الذي علم حقيقة الإسلام ، ومن شهد أن الرسول حق وجاءه البينات ، وفي الآية التالية للآية الكريمة التي بين أيدينا أكبر برهان على ذلك ..

( وَمَنْ يُتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقًّا وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ) ( آل عمران : ٨٥ - ٨٦ )

.. إذا .. الخطاب الديني الحق لا يتهم الآخرين بأنهم ليسوا على حق ، ولا يكفرهم لأنهم آخرون .. بينما نرى أن الكثيرين ممن يحسبون أنفسهم أوصياء على دين الله تعالى يكفرون كل ما هو آخر .. حتى المذاهب الإسلامية والطوائف الإسلامية المخالفة لهم يكفرونها ، ويزعمون أن أتباعها في النار مهما عملوا .. والطامة الكبرى أنهم يحتجون ببعض الروايات التي لُفقت على الرسول ﷺ .. من هذه الروايات .. ما ورد في مسند أحمد ، حديث رقم ( ١١٧٦٣ ) حسب ترقيم العالمية :

]] حَدَّثَنَا ..... عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ افْتَرَقَتْ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَأَنْتُمْ تَفْتَرِقُونَ عَلَى مِثْلِهَا كُلِّهَا فِي النَّارِ إِلَّا فِرْقَةً ..

( ٣ ) - النقطة الثالثة التي نقفُ عندها تكمنُ في كونِ الخطابِ الدينيِّ الحقِّ ، يدعو إلى نشرِ دينِ اللهِ تعالى ، من خلالِ الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ ، لا من خلالِ الإكراهِ بالسيفِ .. يقولُ تعالى :

( ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ) ( النحل : ١٢٥ )  
.. فاللهُ تعالى لا يريدُ إكراهَ أحدٍ حتى على اعتناقِ دينهِ الحقِّ ، ففلسفةُ الواجِبِ والعقابِ في القرآنِ الكريمِ مبنيةٌ على حريةِ الاختيارِ ، وليس على الإكراهِ .. يقولُ تعالى :

( لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ) ( البقرة : ٢٥٦ )  
.. ويقولُ تعالى :

( وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ) ( يونس : ٩٩ )  
.. ويقولُ تعالى :

( وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهَا اللَّهُ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا يَعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً ) ( الكهف : ٢٩ )

.. بعدَ كُلِّ هذا البيانِ الإلهيِّ الواضحِ وضوحِ الشمسِ وسطَ النهارِ ، يطلعُ علينا الكثيرون من الخطباء والمفكرين ليصوّروا لنا الدعوةَ إلى الله تعالى مَن خ لالِ قَتَّ مِ الآخريين وسبي أموالهم وأعراضهم ، مُحْتَجِّين بالكثير من الروايات التي لُفِّتْ على لسانِ الرسولِ ﷺ ..... من هذه الروايات - على سبيل المثال - ما ورد في صحیح البخاري ، حديث رقم ( ٣٧٩ ) حسب ترقيم العالمية :

[[ حَدَّثَنَا ..... عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهَا صَلَّوْا صَلَاتِنَا وَاسْتَقْبَلُوا قِبَلَتِنَا وَدَبَّحُوا دَبِّحَتِنَا فَقَدْ حَرَمْتُ عَلَيْنَا دِمَاؤَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ ..... ]]

.. وما يجبُ أن نعلّمهُ أن هذا الخطابَ المحسوبَ على الدين ، والذي يَضَعُ كُلَّ ما هو آخر في خندقِ العداة ، ويريدُ محاسبتَهُ وهدرَ دمه وماله كونه آخر ، لا يختلفُ - من حيث الجوهر - عن خطابِ الكافرين لِرَسُولِ اللَّهِ تعالى .. يقولُ تعالى في وصفهِ لهذه الحقيقة :

( وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ) ( إبراهيم : ١٣ )

( ٤ ) - النقطةُ الرابعةُ التي نقفُ عندها ، هي تقديمُ التاريخِ ورجالاتهِ أصناماً لا يجوزُ نقدُها ، وجعلُ هذه الأصنامِ برزخاً يوجبُ الكثيرَ من دلالاتِ كتابِ الله تعالى عن إدراكِ قارئهِ .. فالفكرُ الإسلاميُّ - من منظارِ هذا الخطابِ المتخلفِ - تمَّ إنجازُهُ مَن قَبْلَ السابقين ، وما على اللاحقين إلا اجترارُ ما وصلنا عن السابقين ، فالسلفُ - كما يزعمون - لم يتركُ للخلفِ شيئاً ..

.. هذا الخطابُ المتخلفُ المحسوبُ على الدين ، يُؤدِّي إلى الكُفْرِ بتدبيرِ القرآنِ الكريمِ ، ويناقضُ كَلِمَةَ ما يُريدُهُ اللهُ تعالى .. يقولُ تعالى :

( سَتْرِهِمْ آيَاتًا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ) ( فصلت : ٥٣ )

.. فأياتُ الله تعالى التي يحملها القرآن الكريم في الآفاق ، وفي الأنفس ، تظهرُ للناس مع تقدم الزمن .. وبالتالي فلا بدُّ أن يدرك كلُّ جيلٍ من دلالات كتاب الله تعالى ما لم تستطع الأجيالُ السابقة إدراكه .. وبالتالي فالخطُّ البيانيُّ للفكر الإسلامي الحق مع تقدم الزمن ، في تصاعد نحو الأعلى ، حتى يتبين للبشرية أن كتاب الله تعالى حق ، يستحيل على البشر الإتيان بمثله ..

.. هذا هو المنظارُ الحقُّ الذي يجبُ أن ينظرَ من خلاله أصحابُ الخطاب الـمدينيِّ الحق .. أما الخطاب الذي يُقدم الفكر الإسلاميَّ مُجزأً من قِبَل السلف ، ولا يجوزُ تجاوزُ فهم السلف لكتاب الله تعالى ، فهو خطابٌ يجعل الخطُّ البيانيُّ للفكر الإسلامي مع تقدم الزمن ، في هبوط نحو الأسفل ، ويُصور النصَّ القرآنيَّ نصاً محدوداً الـمدلالات كالنصوص البشرية ..

.. ولذلك نرى أن أتباع هذا الخطاب المتخلف يضيقون ذرعاً بكلمة جديد مد مستنبط من كتاب الله تعالى ، مهما بلغت الحجج والبراهين التي تُثبت حمل كتاب الله تعالى لهذا الجديد .. وبالتالي تشمئز قلوبهم حينما يُذكر كتاب الله تعالى وتستهيب دلالاته بشكل مجرد بعيداً عن أصنام التاريخ .. يقول تعالى :

( وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ

إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ) ( الزمر : ٤٥ )

.. فمنهجهم في التفاعل مع كلِّ ما هو جديد ، يُصوره الله تعالى بقوله :

( بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ) ( الزخرف : ٢٢ )

.. وما أكثر المسائل الفكرية التي أتتنا من السابقين وثبتت معارضةً لها لصريح القرآن الكريم .. أذكر منها على سبيل المثال : زعم مسألة النسخ والمنسوخ ، والزعم بالخروج من النار ، واحتكار الخلاص ، وتأييد الرسول محمد ﷺ بمعجزات كونه مصدقاً للمنهج ، والمبالغة في مسألة الشفاعة ، وتصوير مسائل القضاء والقدر تصويراً جبرياً ، وتلفيق أحكام لمسألة العبيد وملك اليمين لا يحملها القرآن الكريم لأم من قريب ولا من بعيد .. هذا بالإضافة إلى الإعراض عن جانب الإعجاز العددي وغيره في القرآن الكريم ..

( ٥ ) - النقطة الخامسة التي نقف عندها ، هي غياب الموضوعة في الخطأ المتخلف ، وذلك حين مواجهة المشاكل المتعلقة بقضايا الفكر الإسلامي ، والبحث عن شتمات لتعليق الأخطاء عليها ، وتحميل الآخر مسؤولية الفشل بشكل كامل ، وكل ذلك من خلال تقديم فرضية المؤامرة كواقع سحري لا سبيل للخلاص منه ، ومن خلال استخدام مبدأ سد الذرائع كوسيلة لتغطية الحقيقة ..

.. كل ذلك يكون غطاءً يحجب البصيرة عن رؤية ما تجب رؤيته في سطور التاريخ ، وفي الواقع .... ومن أجل عدم الاعتراف بخطأ بعض رجالات التاريخ الذين تم تحويلهم إلى أصنام ، يتهم التاريخ بأنه مزور حين الاستشهاد بجزئية منه .. وفي الوقت ذاته يتم الاستشهاد بجزئية من ذات التاريخ الذي تم اتهامه بالتزوير من أجل إثبات عصبية ما ، من أجل تقديم رجل من رجال التاريخ كصنم لا يجوز الاقتراب منه ..

.. فغياب الموضوعية ، وتغيب العقل المجرد والمنهج العقلي في البحث ، وإحلال العصبية وروايات التاريخ مكان ذلك ، يؤدي إلى اتباع منهج البحث عن النقائص السلبي لموضوع البحث ، وإلى تقديمه بديلاً وحيداً لإظهار أحقية الرأي الفاسد ، ويؤدي بالتالي إلى تعميق الخطأ ، وعدم الاعتراف بالحقيقة ..

.. فعلى سبيل المثال ، حين الحديث عن المرأة وحرمتها وحقوقها التي غيّبت خلال التاريخ ، يقدم أصحاب الخطاب المتخلف جانب الخلاعة الغربية كبديل وحيد مقابل

إعطاء المرأة حريتها ، وكأنه لا يوجد أماناً للمرأة إلا الخلاءة الغربية ، أو الواؤد الشرقي ..

.. وهكذا .. تصبح ساحة فاعلية مواقف الأمة ، خلف المنابر بدلاً من الواقع .. فإسقاط جزئيات تاريخية من الماضي على الواقع ، وتقديمها حلاً سحرياً لمشاكل الحاضر ، يبدد جهد الأمة ، ويضع مرادها في الجهة المعاكسة لإرادتها .. فسه ماحات تحديات الماضي ، ومستحقات معاركه ، ونتائجها ، وأدوات هوض الأمة .. كل ذلك يختلف - من حيث جزئيات العمل وخصوصياته - ما بين الماضي والحاضر ..

( ٦ ) - النقطة السادسة التي نقف عندها تكمن في كون الخطأ ماب المتخذ يف يعتمد على غوغاء العوام في مهاجمة كل من يريد البحث عن الحقيقة ، سواء كان ذلك في مجال فهم دلالات كتاب الله تعالى خارج إطار فهم السابقين ، أم في فهم التاريخ بعيداً عن بعض التأويلات الملققة ، أم في فهم الواقع الحاضر ، أم في مجال بع ض الاكتشافات العلمية ..

.. وفي هذه النقطة يتطابق سميت هذا الخطاب مع سميت خطاب فرعون لقومه .. يقول تعالى واصفاً ذلك :

( فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِثْمَ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ

فَأَعْرَضْنَا عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَا هُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ) ( الزخرف : ٥٤ - ٥٦ ) .. فالآخر يتهم بالكفر والزندقة ، أو بالعمالة والخيانة ، لأن له تصورهم وفهمه الخاص به ، وكل ذلك لتغيب الحقيقة عن أعين العوام ، نتيجة فسه مل في مواجهة الحقائق ، وفشل في امتلاك الحجج والبراهين ..

.. أما الخطاب الديني الحق بما يخص هذه النقطة ، فنراه - في كتاب الله تعالى - مجرداً عن غوغاء العوام ، وعن أوهام التاريخ ، وعن عصبية الذات ، ومبنياً من لبنات الحجج والبراهين .. يقول تعالى :

( قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) ( البقرة : ١١١ )

.. ويقولُ تعالى :

( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ) ( المائدة : ٨ )  
.. فمعيَارُ الحقِّ في تقيِيمِ كُلِّ جديِدٍ ، هُوَ امتلاكُ الحجَّةِ والبرهانِ ، بعِي مدَاءِ من

العصبيَّات والأهواء ..

( ٧ ) - النقطةُ السابعةُ التي نَقَفُ عندها في وصفِ الخطابِ المتخلفِ ، تَكْمُنُ في نشرِ ثقافةِ الموتِ ، كوسيلةٍ وحيدةٍ للخلاصِ من الفشلِ والهزيمةِ ، وفي تقزيمِ قيمةِ العملِ في الحياةِ الدنيا ، وفي نشرِ ثقافةِ الفوضى من خلالِ تصويرِ معاركِ الأُمَّةِ وتحدياتِها كمُشاجرةٍ بين قبيلتين ، الإعدادُ للنصرِ فيها يحتاجُ إلى ساعاتٍ أو أيامٍ ، كما هو الحالُ في بعضِ معاركِ الماضي من التاريخ ..

.. وبذلك يبدو الإنسانُ على أنه يعيشُ منتظراً الموتِ ، وأنَّ عليه أن يَحِلَّ مشاكلهُ الدنيويَّةَ بالخروجِ من الدنيا .. حتى الجزاءُ في الآخرةِ يُقدِّمهُ - هذا الخطابُ المتخلفُ - حسبَ معاييرٍ مبنيةٍ على الأمنياتِ دونَ العملِ ..

.. أمَّا الخطابُ الدينيُّ الحقُّ ، فيعطي العملَ في الدنيا أهميةً تتناسبُ مع كونِ الدنيا مُقدِّمةً للآخرةِ ، ومع كونِ مصيرِ الإنسانِ في الآخرةِ مُتوقِّفاً على عملهِ في الدنيا .. يقولُ تعالى :

( هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) ( النمل : ٩٠ )

( وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) ( يس : ٥٤ )

( وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) ( الصافات : ٣٩ )

( الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) ( الجاثية : ٢٨ )

( إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) ( الطور : ١٦ )

.. فما يُريدهُ اللهُ تعالى من الإنسان هوَ أن يكونَ أهلاً لخلافتهِ في الأرض ، وأن يعملَ بناءً فيها لا هداماً .. يقولُ تعالى :

( هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ) ( هود : ٦١ )

.. فالإنسان - في حياته الدنيا - إضافةً إلى عبادتهِ لله تعالى ، مُطالبٌ بِإِعْمالٍ مُدَادٍ أسبابِ القُوَّةِ ، يقولُ تعالى : ( وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ) ( الأأنف مال : ٦٠ ) ، ومطالبٌ باستخدامِ مادَّةِ الكونِ في تحصينِ نفسه ، وفي نشرِ العدلِ ، وفي نصرةِ الحقِّ .. يقولُ تعالى :

( لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ) ( الحديد : ٢٥ )

.. فالعبارةُ القرآنيَّةُ : ( وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ ) ، نراه ما خلفَ العبارةِ القرآنيَّةِ : ( لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ) ، وأمامَ العبارةِ القرآنيَّةِ : ( وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ) .. وفي ذلك بيانٌ إلى أنَّ نشرَ العدلِ والحقِّ ، ونصرةَ منهجِ اللهِ تعالى في الأرض ، يحتاجُ إلى استخدامِ الحديدِ ، سواءً في البأسِ الشديدِ دفاعاً عن الحقِّ ، أم في سعادةِ الإنسانِ ومنافعِهِ الحيَّاتيَّةِ ..

.. إنَّ الخطابَ الدينيَّ الحقَّ مُطالبٌ بالدعوةِ إلى بناءِ الحضرةِ ، من خلالِ اكتشافِ نواميسِ عالمِ الخلقِ ، والعملِ بها في اتجاهِ سعادةِ الإنسانِ وسموهِ ، وفي اتجاهِ تسخيرِ ما بين يديه لخدمةِ الإنسانيةِ وفقِ المعاييرِ التي يريدُها اللهُ تعالى ..

.. وهكذا .. فالخطابُ الدينيُّ الحقُّ ، خطابٌ ببناءٍ ، يدعو إلى ثقافةِ المحبةِ والتسامحِ والموَدَّةِ والعملِ البناءِ والتعاونِ بين أبناءِ المجتمعِ ، ويدعو إلى ثقافةِ الحياةِ وسعادةِ الإنسانِ ، لا الموتِ ، ويدعو إلى العملِ الحضاريِّ والإبداعِ الفكريِّ في شتى مجالاتِ الحياةِ ، ويسلكُ طريقَ الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ في نشرِ دينِ اللهِ تعالى ، ولا يبغضُ الناسَ أشياءهم ، ولا يحتكرُ الخلاصَ دونَ الآخرينِ ..

والله تعالى وليُّ التوفيقِ

المهندس عدنان الرفاعي